«هل أحضرت ما يثبت ملكيتك للدرّاجة»؟ دسّ العجوز يده المعروقة المرتجفة في جيب صدرته، وأخرج ورقة مغضّنة، ناولها للمحقّق.. أخذ المحقّق يقرأ الورقة بصوت خفيض، ثمّ حدّق في وجه العجوز، وقال: «يا عمّي مصباح إنّ الرقم المكتوب في هذه الورقة لا ينطبق على رقم هيكل الدرّاجة، وهذا لا يثبت ملكيّتك للدرّاجة.. أنصحك بأن لا تتعب نفسك، ستصادَرُ الدرّاجة، وتؤول ملكيّتها للحكومة».. ندت عن العجوز آهة موجعة.. نهض بتثاقل وغادر حجرة التحقيق.. في الخارج وبينما هو يعبر الممرّ، ألقى نظرة جانبيّة، في ردهة مظلمة.. رأى درّاجته مسندةً على الجدار.. قال في نفسه: «لم تعد درّاجتي، صارت من أملاك الحكومة، وعليه فإنّي سأمشي على قدميّ مسافة طويلة..» مضى في الطريق الطويل المؤدّي إلى القرية، وعاد يحدّث نفسه: «غداً أجمع ثمن عربة خشبيّة وحمار.. سأذهب إلى شاطئ مقفر، بعيداً عن الأعين الحاقدة..». مرّ بمحاذاة المستنقع، الّذي كثيراً ما خاض أوحاله ومياهه الآسنة. تناهى إليه نقيقُ الضفادع الرتيب، وفغمت أنفه روائحُ عطنة مقرفة.. انحنى يلتقط حجراً، طوّح به في اتّجاه المياه الراكدة، وواصل المسير... لم يعد يفكّر في شيء، سوى نومٍ عميق، يتلفّع بشرشف هرباً من لسعات البعوض، ويحلم بعالم سعيد يسوده العدل.

ساعتئذٍ كان في المخفر شرطيٌّ نحيل أشيبُ الشعر، له وجه شاحبٌ ممصوص، وعينان صغيرتان كعينَيْ فأر، وله شارب أسود منفوش، طفق يفتّش عن الدرّاجة، الّتي كثيراً ما رآها في الردهة، وعندما يئس من العثور عليها، ضرب جبينه براحة يده، كأنّه يتذكّر شيئاً أضاعه، وأخذ يغمغم: «لقد أخذها الشاويش مفتاح.. سبقني ابن العاهرة.. أنا أحمق.. أحمق!!». وأمام غرفة التوقيف ذات الباب الحديدي ذي الكوّة الصغيرة المزروعة بالقضبان، كان ثمّة شرطي شاب له شارب أسود مشذّب، ووجه ممتلئ، وعينان رماديّتان. حنى رأسه، يخاطب الصبيّ الأسود، بصوتٍ خفيض فيه رقّة: «لقد أطلق سراح رفاقك، لم يعد في الحجز سواك.. هل تعرف لماذا؟»

هزّ الصبيّ رأسه بالنفي..

واصل الشرطي حديثه: «لأنّ لهم أناساً هناك.. فوق.. في الحكومة.. لماذا تعيش إذا كنتَ مقطوعاً من شجرة.. وحيداً!!» ثمّ قذف به داخل الحبس، وجذب البابَ بعنف.

تكوّم الصغير لصق الجدار، وأخذ ينتحب.

طرابلس (ليبيا)

موسوعة عيدان الكبريت

محمّد أبو معتوق

... كثيراً ما أُحسُّ بأنّني أخرج من الجدار.. أو أدخلُ من السَّقف.. ولذلك أشعر بالعالم وأشعُرُ بأنّه مفتوح أمامي برمّته. حتّى المعادن الصّلبة تستجيب لي.. فعندما أقبض على حديد السيَّارة، ينفتح فجأة أمامي باب، فأنحني برأسي وأرمق السّائق بتوازن، وأطلب منه إيصالي إلى قريتي القريبة من المدينة... نعم إلى قريتي وموئل طفولتي ومراهقتي وشتائم أمّي وصفعات أبي، حيث يمكنني أن أتساءل كم عوداً للكبريت يمكن للشجرة الغريبة أن تكون؟

عندما أفرغتُ بيتي في المدينة ـ بيتي الّذي شربت بثمنه عرقاً ـ حزمتُ أمري وأخرجتُ نفسي وذكرياتي من البيت وسلّمت المفاتيحَ للغرباء.. وقد خطرتْ ببالي عند تسليمه فكرةُ أن أبني بزجاجات العرق الفارغة منزلاً بديلاً مُعْتَبَراً في فضاء الله.. ولكنّني أقلعتُ عن تنفيذ الفكرة، لأنّني من المصابين بحساسية مفرطة تجاه الزّجاجات الفارغة.. ومن يدري: فعندما أقوم ببناء البيت فقد أخسر حساسيتي تلك وأصبح كائناً بليداً لا يفرّق بين الفارغ والملآن.. لذلك خرجتُ من البيت وتركته فارغاً... وقد فعلت ذلك، بعد أن طلّقت الزّوجةَ والأولاد وأوصلتهم إلى بيت جدّهم من طرف أمّهم في المدينة، وذهبتُ إلى القرية، إلى بيت أمّي وأبي من طرفي.. وقد أطلقتُ على هذه المرحلة اسمَ العودة للجذور. ولأنّ قريتنا تنتج البقول والبصل والفوم، ولا تنتج الأعناب والخمائر والأصحاب، فقد قرّرتُ أن أدخل القرية ليلاً وأخرج منها ليلاً حتّى لا تراني ولا أراها..

في أحايين كثيرة، ورغبة منّي في التّشبّث بالأرض، أحاول أن أقف في ساحة الدّار ليلاً لأمدّ ذراعيّ مقلّداً شجرة: فربّما أورقتْ أصابعي في ليل القرية النّديّ. وعندما أمتلئ بالوحدة والتّحول، وأشعرُ بأنّني قد صرت شجرةً غريبة، أصيح على أمّي العجوز بصوت مرتفع حتّى تسمعني.. لأقول لها: تعالي واقعدي تحت أغصاني.. وإذا لم تصدّقي تحوّلاتي فحاولي بفأس ذكرياتك الغابرة وشبابك أن تتدفّئي بخشب روحي.

غير أنّ أمّي تسمع الصّراخ، ولا تجيء.

شجرة.. شجرة... يالوحشة الأشجار وبردها عندما يحاول كائن يابس مثلي تقليدَها.

مع خيوط الفجر الأولى أنتزعُ قدميّ عن الأرض، فتستجيبان لي وتتحرّكان مطوحتيْن بالجذور والتّشبّث والأمّهاتِ الواجمات، ثمّ أمضي إلى حلب.. المدينة الّتي أفهم جدرانها ولا تفهم ظمئي وغرابة خمائري.

عندما كنتُ مدرّساً في ثانويات حلب، استدعاني المسؤول في مديريّة التّعليم وسلّمني قرارَ فصلي من العمل بعد أن أوضح لي بأنّ التّدريس أمانة، ولا يجوز أن نحمل الأمانة بيد وزجاجةَ العرق المثلّث والمصفّى باليد الأخرى. فقلت موضحاً: يا أخي ما عاد مثلّثاً ولا مصفّى ولكن الرّوح معتادة عليه لتتطهّر.

ـ «طيّب ألا تستطيع أن تشربه بالسرّ كما يفعل الجهابذة والمبشّرون»؟ ردّ عليّ المسؤول بتعاطف..

ـ لا أستطيع.. العلنيّة موقف أؤمنُ به من قبل أيّام «البيروسترويكا» المطبّقة في بلاد الواق الواق.

بعدها نظر المسؤول إليّ متحسّراً وقال: «لذلك، وحفاظاً على هذا الجيل، قرّرنا اقتلاعَك من سلك التّدريس». اقتلاع!. يبدو أنّهم يشعرون بأنّني أشبهُ شجرةً غريبة.

عندما انتهى المسؤول من الكلام، امتلأتُ بالخوف والتّعرّق.. ثمّ أحسستُ بالدهشة والانعتاق.. بعدها، خرجت من الجدار إلى الهواء والضّجيج.

في صباحات حلب أذهب إلى مكان مبيت أولادي في بيت جدّهم لأمّهم وأدور حول البيت مثنى وثلاثَ ورباع، لأزوّد صدري بهواء يخصّهم ويعينني على احتمال يومي من دونهم.. ثمّ أذهب إلى السّاحة العامّة في مواجهة النّصب الحجري الكبير لأقف هناك على بلاط أرضيّة السّاحة الكتيم وأرفع ذراعيّ مقلّداً شجرة، وأرمق الهواء والأرض بغرابة فائقة وأنتظر عبور النّسوة والعصافير والخلق؛ فربّما وقع عصفور ضالّ على أصابعي، عصفور أنهكته الوحدةُ والتّحليقُ العظيم.

وعندما لا تستجيب العصافيرُ لمقترحات المخيلة يحاول النّاس العابرون والمستغربون أن يلقوا بالقطع النّقديّة إلى جهات جسدي وأغصاني... فاتأمّل القِطَعَ المعدنيّةَ بغرابة، وتلتمع في جهات مخيلتي الأفكار... وعندما يصل المبلغ السّماوي إلى حدود الـ (٢٠) ليرة أحرّك جذعي وأغصاني وأنحني لالتقاط القطع المعدنيّة المتناثرة، مهرولاً إلى أقرب بائع للخمور لأفتتح نهاري بزجاجة صغيرة. في المساء أقف مدّة أطول، ولذلك أضطرُّ للقعود مثل بوذا نحيل؛ فأعباءُ المساء أعتى من أن تحتملها شجرةُ جسدي وكبدي الخائريْن من وقفة الصّباح وزجاجته المبكرة... ثمّ إنّ القعود يتيح لبوذا أن يتأمّل الخليقة والخلق ويصدر التّعاليم، ويتيح لي أن أحذر من حركة الأطفال، ويُمكّنني من احتواء القطع النّقديّة في حجري حتّى لا تضلّ. الأولاد الصّغار أحبّهم وأحذرهم؛ فلقد ذهب بعضهم بعيداً، وصدّقوا بأنّني شجرة، فحاول عددٌ منهم التّبوُّلَ على جذعي وحاول بعض آخر التّعلّق بأغصاني واقتسام النّقود معي.

في المساء عندما تتهاوى السّاحةُ الحجريّةُ من الفراغ والتّعب والتّماثيل، أجمعُ النّقودَ وأعدُّها وأقرّر لون الأمسية وطبيعتها. وغالباً ما تكفيني نقود المساء الطّويلة لأذهب إلى خمّارة «الشّباب» الّتي يشرف عليها ويديرها المرحومان «حنّا وإميل كعده» حيث يُقْسِم الكثيرُ من الرّوّاد أنّ روحيهما ترفّان على الصّحون والكؤوس لتحصيا غلّةَ المساء. وكنت واحداً من الّذين لا يكتفون برؤيتهما فحسب، وإنّما أتابع الشّرب والمقارعة حتّى أتمكّن من الحديث إليهما.. لنبدأ معاً قرع الكؤوس والذّكريات والتّحدّث عن أيّامهما ومقدار كراهية الزّبائن لهما... ثمّ أتعالى عليهما بالصّراخ والشّتائم حتّى ينصرفا معاً إلى المقبرة ليكتشفا معاً فضائل الموت والبرد والأشباح على معاقرة الزّبائن الكلام.

بعد أن أنتهي من إفراغ كائنات الطّاولة أتلفّتُ للطاولات المجاورة، ثمّ أمدّ كفّي إلى رجل الطّاولة وأضغطه ليستجيب لي وتتساقط من مسامه قطراتُ العرق الّتي هدرتْ فوقه في الأيّام السّالفة.. بعدها أنهض وراءهما، وراء الشّبحين (حنّا وإميل)، وبي رغبة جارحة في عصرهما حتّى تشرق فيهما النّداوةُ ويعيدا معاً الزّمان الّذي مضى، أو يذوبا من مخيلتي ويتحوّلا إلى غبار لا طاقة له على العودة ولا طاقة له على الذكريات.

في تلك اللّيلة ـ ليلة المطاردة الغريبة ـ وعندما وصلت إلى تخوم المقبرة ولم ألمح شبحيّ العزيزيْن، قرّرتُ العودة إلى القرية لأنام.. والنّوم شيء عصيّ لا يتحقّق إلاّ في مكان عصيّ، وقرب أمّ عصيّة وقرية من العصاة.

عند زاوية الطّريق حيث أنتظر عبرت سيّاراتٌ كثيرة. . ثمّ استجابت لإشارتي سيّارة. مددتُ رأسي لأصعد فاصطدمتُ بالباب، وبدأتُ أشعر بأنّ الحواجز تستعصي وتتعالى عليّ.

ـ إلى أين يا أخ؟. تساءل السّائق

ـ إلى قرية الحمضانة.

ـ خمس وسبعون ليرة.

ـ تكرم عينك.

دخلتُ وقعدتُ قرب السّائق. . والتفتُّ إليه. . . وبعد ثلاثة كيلومترات من التّحديق استطعتُ أن أتبيّن ملامحه. . . كان يقعد خلف المقود ورأسه في الأعلى. . . ثمّ بدأتُ الكلام:

ـ أحياناً أحبّ أن أزور المقبرة.

ـ «بعد منتصف اللّيل. . . مزاج عجيب. . . » ردّ السّائق بعصبيّة.

ـ معك حق. . وخصوصاً إذا كان لك صديق اسمه سمير «الددم» ويكتب الشّعر. . . وقد أرسل آخر قصيدة «هيء» إلى الصّحيفة الأدبيّة في العاصمة. . . وبعد أن توفّي نُشرت القصيدة دون أن تعلم الجريدةُ بوفاته ودون أن يعلم هو بنشر القصيدة. ألا يجب علينا، نحن الأصدقاءَ، أن نخبر أصدقاءَنا الّذين ماتوا عن آخر الأخبار؟ ولذلك قلت في نفسي بعد أن شاهدتُ القصيدةَ منشورةً في الجريدة وبعد أن خرجتُ من خمّارة بيت الكعدة: يجب على الإنسان أن يوصل الأمانة لأصحابها. المهمّ يا أخ، دخلتُ وأخرجت من جيبي خمسَ علب من الكبريت لأبدأ البحث عن قبره. وصحتُ: يا أخي يا سمير أين أنت؟ فلم يردّ عليّ أحد. . الحقيقة ما كان معه حق. . يبدو أنّ الأخ قد مات موتاً كاملاً. . . يعني الّذي له قصيدةٌ مرسلةٌ للنّشر يجب أن يحسب حسابه ولا يموت موتاً كاملاً، حتّى يتمكّن من الرّدّ على صوت صديق مثلي. ثمّ قلتُ لنفسي من حقّ أهل المقبرة أن يسمعوا القصيدة ويعرفوا أنّ واحداً منهم يكتب الشّعر. بعدها أخرجتُ الجريدة وفردتها وبدأت القراءة. ولكنّني لم أقدر، فقد كانت العتمة عميقة. . أشعلتُ كومة الكبريت الّتي أحملها. لم يردّ أحد عليّ. . . صرخت على واحد من آل «الكعدة» من أصحاب خمّارة «الشّباب». . ثمّ اكتشفت الحقيقة.

المقبرة الّتي دُفن فيها صديقي الشّاعر «سمير ددم» غيرُ هذه المقبرة. أحببتُ أن أدخّن سيكارة. التّدخين بالمقابر حلو، والواحد يحسّ بأنّ كلّ شيء في المقبرة يدخّن: العظام والتّراب واللّيل. . وعلى باب المقبرة لم تكن قد وُضعت لافتةٌ تحذّر من مضار التّدخين، وانتبهت. . كانت الجريدة الّتي معي تدخّن. . رميتها بخوف. . . ثمّ بحثت عن سيكارة في المقبرة، فلم أجد. لو تسمح يا أخ. . هات من عندك سيكارة.

ردّ السّائق بغضب: «ما معي». . ثمّ ضغط على المكابح فتوقّفت السيّارة فجأة وارتدّ جسدي إلى الخلف ارتداداً عنيفاً.

ـ خير إن شاء الله. . صار شي؟

ـ ما صار شي لو سمحت أعطني الأجرة.

ـ هل وصلنا؟

ـ لم نصل ولكنّني أريد الأجرة.

ـ خلّنا حتّى نوصل وبعدها تأخذ الأجرة ووفوقهاكأس عرق وحبّة مسك.

ـ أعطني الأجرة بدون حبّة مسك، وإلّا فلن أتابع الطّريق.

بعد أخذ وردّ بيني وبين السّائق تحدّث السّائقُ عن أولاد الحرام الّذين يسكرون ولا يدفعون، وقال بأنّ منتصف الطّريق هو الّذي يحل المشكلة. ثمّ طرح ثلاثةَ شروط: الدّفع، أو النّزول، أو العودة إلى أقرب مخفر للشرطة. وقد طُرِحتْ هذه الشّروط بعد أن تأكّد السّائق بأنّني من فصيلة أولاد الحرام الّذين لا يقدرون على الدّفع. لكنْ أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ، ويطرح عليّ السّائق إنذاره اللّئيم الّذي لا يقلّ تعنُّتاً وعوراً عن إنذار «غورو» جنرال الاحتلال الفرنسي، فقد ركبتني حالة من الاعتزاز العنيف رددتُ فيه على الإنذار ردّاً لاهوادة فيه. فرفضتُ الدّفع لاستحالته، ورفضتُ النّزول بسبب البرد والفيافي، وقبلتُ بالخيار الثّالث. ثمّ بدأتُ أفكّر. . . الشّرطة تمسك بالنّاس، والنّاس يعودون للجذور ليتمسّكوا بالأرض، فتخاف الأرض وتتوقّف عن الدّوران، ثمّ يتحقّق الأمنُ والاستقرارُ وتتعالى الإنذارات وسائقو السيّارات.

في طريق العودة لأقرب مخفر، شعرتُ بسلام غريب وتمنّيتُ أن يتعنّتَ الضّابط المناوب في مخفر الشّرطة، فأتعرّض للاعتقال والزجّ في غرفة الحجز، لأمضي بقيّة ليلي قرب جدار وباب، بعيداً عن برودة التّماثيل وفراغ السّاحات والأولاد. وقد حاولتُ أن أبحث في الذّاكرة عن أشياء تؤجّج غضبَ الضّابط المسؤول ليتمسّك بي، ويحقّق رغبات أمّي. . . فتذكّرتُ بيتيْن من الشّعر ألّفهما صديقٌ حيّ، فيهما حماسة وسجون. ثمّ مددتُ يدي إلى علبة الدّخان الّتي تخصّ السّائق فاستللتها من فوق واقية أشعة الشّمس، وأخرجتُ لفافةً وضغطتُ على الولّاعة الحراريّة بعصبيّة ثمّ أشعلتُ السّيكارة

وعببتُ منها نَفَساً عميقاً . . . فإدام الأموات يدخّنون فلماذا لا يدخّن الأحياء أيضاً؟ لقد كان الدّخانُ العميقُ يتصاعد من قصائد صديقي الشّاعر الّذي واريته التّرابَ منذ عشرة أيّام. ليت الدّخان يتصاعد منّي كما يتصاعد من القصائد حتّى يرتاح الأولاد وسائقو منتصف اللّيل، وتخسرَ السّاحةُ شجرتَها العارية.

بعد الكثير من اللّيل والالتفاف والدّوران، توقّفت السيّارة أمام غرفة اسمنتيّة ملحقة بواجهة مبنى كبير. ترجّل السّائق وتحدّث بضع كلمات مع الرّجل المناوب في غرفة الاستعلامات الاسمنتيّة. ثمّ جرى اتّصال هاتفي، فحركة باتّجاه السيّارة حيث تمّ استدعائي لمقابلة الضّابط المناوب في الغرفة الّتي تجاور متاهةً من الممرّات. حين وصلتُ ودخلت، طرح عليّ الضّابط المناوب أسئلة أبويّة ذكّرتني بالأسئلة الّتي أطرحها على أولادي في أوقات صحوي. وعندما أتممت الإجابة على الأسئلة، نهض الرّجل وقال للسائق «خذ غريمك إلى مخفر للشرطة، نحن غير متخصّصين بمثل هذه المخالفات». ثمّ قعد على كرسيّه وانكبّ على الطّاولة فوق كتاب. عندها تذكرت السّاحة والبرد الّذي يطول كلّ شيء، فانتقلتُ إلى الخطوة التّالية - وهي مرحلة إلقاء الشّعر - فرفعت كفّي وبدأت بالإنشاد:

إنّ السّجونَ وإن تطاول شأنُها
ألفيتها قيداً على الجلّادِ
الماءُ والصّحراءُ من أجدادنا
وكذا العصا من جملة الأجداد(*)

بعد أن انتهيتُ من إلقاء الشّعر رفع الضّابطُ المناوبُ رأسه عن الكتاب وطلب منّي إعادةَ الإنشاد فأعدتُ. ثمّ طلب منّي بطاقتي الشّخصيّة فناولته البطاقة. . فسجّل بعض المعلومات، ودوّن البيتين بعد أن كرّرتهما على مسامعه إملاء، ثمّ نهض مودّعاً.

عندما خرجنا من المبنى أسرعتُ باتّجاه السيّارة ودخلتها قبل السّائق وقعدت في مكاني منتظراً من السّائق إيصالي لمخفر للشرطة، من أجل إكمال القصاص.

- تفضّلْ انزلْ - صاح السّائق مزمجراً.
- ومخفر الشّرطة؟
- ما عدت أريد منك شيئاً.
- ولكنّني أريد.
- ماذا تريد؟
- أريد أن توصلني إلى السّاحة.
- أيّة ساحة؟
- السّاحة عند الفندق السّياحي.
- طيّب - ثمّ أقلعتْ بنا السيّارة.
- هل تعرف؟ - قال لي السّائق - لقد أعجبني صوتك وأنت تقول الشّعر، هل تكتب الشعر؟
- أبداً. . . هذان البيتان من تأليف صديق لي.
- مات أيضاً؟
- لم يمت.

عندما اقتربنا من السّاحة توقّفت السيّارة، ونظر إليّ السّائق. . ففهمت ومددت يدي وفتحت باب السيّارة ثمّ انقضضت باليد الأخرى على علبة الدّخان الّتي تخصّ السّائق. . . الأشجار تدخّن في اللّيل. . وفي السّاحات العامّة أيضاً.
- معك كبريت؟ سأل السائق.
- معي كبريت كثير. . لأنّني أحسب حساباً للنّوم في السّاحة - ثمّ أغلقتُ الباب.

* * *

عندما دخلت حَرَمَ السّاحة وبهاءها وبردها، ذهبتُ إلى التّمثال، وابتهلتُ إليه: «أيّها السيّد، أعطني روحَك وخذْ روحي. . أعطني صلابتك وخذْ معرفتي». . . ثمّ قعدتُ على الأرض مثل بوذا نحيل وبدأتُ بإشعال الحرائق مثل بائعة الكبريت، والضّوء والدّخان يتصاعدان من روحي وأصابعي. . وبعد أن أتيت على آخر السّجائر وامتلأت رئتاي بالبرد والرّماد، غفوتُ، متكوّماً على نفسي مثل تمثالٍ مصابٍ بالتّحجُّر في خاصرته.

في البرد واللّيل العميق شاهدتُ أمّي في الحلم راكضةً نحوي. وعندما اقتربتْ أشارتْ بإصبعها إليّ، فتقدّم رجالٌ مدجّجون وعبروني وذهبوا إلى التّمثال لاقتلاعه، وعند ذلك صرختْ أمّي: «التّمثال ليس ولدي، ولدي نائم أمامه». . فتراجع الرّجالُ المدجّجون في اتّجاهي واقتلعوني من جذوري دون أن ينتبهوا للنداوة الّتي تركها جسدي على الأرض - نداوةٍ لا تقدر أن تتركها التّماثيل عندما تتعرّض للاقتلاع المفاجئ - ثمّ شعرت بأنّني أهوي دون أن أتمكّن من تحديد الجهة والمكان. وكنت أحسّ أنّ روحي لا تليق إلّا بالجحيم لأتخلّص فيها من الوحدة والبرد، ولأسمع فيها استغاثات الحرائق وهي تكتوي ببرودة جسدي وغرابة دخاني. وشعرت بأنّني

(*) البيّتان الشّعريان في النّصّ للمؤلّف

أطير. ولم يكن صراخ أمّي بحوزتي، ولا أخيلة وجوه أولادي...

عندما دخلتُ الجحيم وجدتُ الكثير من الكتب، وعدداً كبيراً من النّاس وقد ألقوا برؤوسهم على كتب مفتوحة تحتها ونـاموا والدّخان يتصاعد من أرديتهم وأطرافهم. ثمّ عبرتُ إلى البرزخ الآخر، بلمحة عين أنستني بردي وتكوّمَ روحي... وفي صدر البهو كانت طاولة وفوقها وربّما خلفها أو تحتها.. رجلٌ. تقدَّم الرَّجلُ مواسياً: «اطمئنّ لن يكونَ بردٌ بعد اليوم. لقد أعدتَ للشعر مجده. لكنّك أسلَمْتَنا للحيرة.. لقد انشغلت أجهزتُنا طويلاً بمعرفةِ قائل البيتين الشّعريّين اللّذين ألقيتهما على مسامع الطّاولة قرب الضّابط المناوب.»

ـ أيّة مسامع.. وأيّ ضابط مناوب؟ ـ تساءلت محتاراً.

ـ من حقّك أن تستغرب ـ قال الرّجل.. إنّنا نحاول أن نؤلّف مجلّداً ضخماً (انسكلوبيديا) عن الأدب الذي يهتمّ بالسجون. ولذلك فعندما نسمع شيئاً مكتوباً عن السّجون نبحث باهتمام عن اسم القائل والمناسبة. وأنت أطلقت البيتين دون أن تحدّد شيئاً... هل تكتب الشّعر؟

ـ أنا لا.. والشّعر الّذي ألقيته ليس لي.

ـ من هو قائل البيتيْن إذاً؟

ـ أيّ بيتين؟

ـ يبدو أنّ البرد مازال يعوق قدرتك على التّذكّر.. يمكنك أن تذهب وتعود إلينا لتخبرنا عن اسم الشّاعر.. ونحن لا ننوي الإضرار بأحد. المهمّ خدمة العِلم وإتمام الموسوعة الّتي نؤلّفها. وحتّى تتذكّر جيّداً سألقي على مسامعك البيتين.. لقد ورد فيهما، كما تلاحظ، حديثٌ عن الأجداد وأنّ من حق الأحداد أن يعرفوا إبداعاتِ أحفادهم. لا تحاول أن تجهد نفسك.. لديك من الوقت ما يكفي للتذكُّر.

ثمّ غابت التّفاصيل عن متناول يدي. وشعرت بالوحدة، وبدأ البرد يتسرّب إلى مفاصلي، وهو ما أنعش ذاكرتي.. فتذكّرتُ الشّعر واسمَ قائله والمناسبة. ولكن هل يعقل أن أصرّح باسم صديقي الشّاعر بعد أن صرّحتُ بشعره؟.. وهل يمكن لصديقي الشّاعر أن يغفر لي، لأنّ كتماني لاسمه سيبعد اسمَه عن الورود في الموسوعة؟ لابدّ أنْ يغفر لي.. ولذلك قررتُ أنّ أنسب البيتيْنْ الشّعريّيْنْ لصديقي الشّاعر الّذي مات رغم أنّه لم يقلهما... فمن حقّه بعد موته أن تفوق شهرته أضرابه من الشّعراء الأحياء، ليتمكّن الدّارسون من التّعرّف إليه والعودة للاهتمام بإبداعاته وتدرّجات الزّرقة على جلده وروحه.

* * *

في اللّقاء الثّاني مع الرّجل الّذي لا يمكن تحديد موقعه من الطّاولة، أخبرته باسم الشّاعر الميّت قائل البيتين وقلت له إنّه مات منذ عشرة أيّام، وأنّ الصّحيفة الأدبيّة في العاصمة قد نشرت القصيدة بعد وفاته.

ـ ليس في دائرة اهتمامنا البحثُ عن شعر الأموات لكنّني سأسعى بكلّ جهد لإدخاله في الموسوعة، تكريماً لعظامه الطّريّة.

خلال ذلك أسعفتني الذّاكرة، فتحدَّثتُ للرجل عن الصّحيفة والمقبرة وزيارتي الأخيرة لصديقي لأقرأ عليه القصيدة. وانتهى اللّقاء. ورجعت إلى الطّاولة الوحيدة والكتاب المفتوح حيث يمكنني أن أضع رأسي وأنام.

في اللّقاء الثالث مع الرّجل المسؤول عن إنجاز الموسوعة، أخبرني بفرح أنّهم تمكّنوا من معرفة قائل البيتين الشّعريّيْنْ الحقيقي، وهو لم يمت كما ذكرت، فتساءلت: كيف؟

ـ ذهبنا إلى بيت الشّاعر المتوفّى وأعجبنا بمكتبته وثقافته.. وحاولنا أن نجد في مؤلّفاته ما يفيدنا... وقد وجدنا من جملة ذلك القصيدةَ الّتي أطلقتها في اللّيلة الماضية ووجدنا اسم صاحبها مكتوباً عليها وبجهد قليل تمكّنّا من اعتقاله للتعرّف عليه وعلى إبداعاته. لقد قدّمتَ لنا من خلال صديقك الّذي مات خدمةً لا تعوّض.

في صبيحة اليوم التّالي استيقظتُ، وتفقّدتُ نفسي وبردي، فلم أجد السّاحةَ ولا التّمثال الحجريَّ ولم ألمحْ حركَة النّاس. كنت متكوّماً في غرفة عارية وحولي الكثير من عيدان الثّقاب المطفأة... وعندما رفعت رأسي وجدت صديقي الشّاعر قربي... كانت الوحدةُ والبردُ قد ذهبا به بعيداً ولم يكن قادراً على الردّ على أسئلتي. فاقتلعتُ نفسي من سطوة جسدي وعظامي وأصدقائي وخرجتُ من الجدار... ورحت أتساءل: كم عوداً للكبريت يمكن للشجرة الغريبة أن تكون؟

سوريا